

قصة حادثة للكاتب نجيب محفوظ كان يتكلم في تليفون الدُّكان بصوت مُرتفع، يُسمَع صوته رغم ضوضاء شارع الجيش الصالح، وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدُّكان ليبعد ما أمكن عن الضوضاء، ثم ختم حديثه بقوله: "إنتظري سأحضر فوراً". طویل القامة نحيلها وروي الجبهة والعينين. مُكُور الذقن وأما صلعته فلم يبقى فوق مرأتها إلا جذور شعر أبيض مثل منابت شعر ذقنه، وقد أفسح مظهره عن إهمال صريح نتيجة للسن أو الطبع أو نسيان الذات، علي ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج. وبدا أنه ينظر إلى الداخل لا إلى الطريق ثم مال يمنة بمحاذة صف من اللوريات الواقفة نسق التوار حتى وجده متقداً إلى الشارع، مرق من المنفذ ليعبر الشارع إلى ضفته الأخرى، وما كاد يجاوز مُقدمة اللوري الأخير حتى شعر بسيارة فورد تندفع نحوه بسرعة فائقة. وقال أحد الشهود فيما بعد إنه كان عليه أن يتراجع بسرعة وإنه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة، ولكنه لسبب ما لعله المفاجئة أو سوء التقدير وثبت إلى الأمام وهو يهتف "يا ساتر يارب" وجرت الحوادث متلاحدة. ندت عن الرجل صرخة كالعلواء وفي ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة الواقفين على التوار، وفوق إفريز محطة الترام صدر عن فرملة الفورد صوت محشرج متشنج ممزق وهي تزحف على الأرض بعجلات متوقفة جامدة وهرع نحو الضحية في ثوان عشرات وعشرين كأسراب الحمام، حتى تكون منهم سور غليظ منيع وانتشر في المنطقة الهرج، ولم ينبع جسم الرجل بحركة واحدة، وكان منكفاً على وجهه ولا يجرؤ أحد على لمسه وإحدى رجليه ممدودة إلى آخرها والأخرى منثنية منحصر البنطلون عن ساق نحيلة غزيرة الشعر، وقد فقدت حذائهما، الرجل وهو يرتفع في الفضاء امتاراً ثم يهوي فوق الأرض كشيء، وبسرعة وبدون أن ينظر إلى يساره كما يجب، وإذا لم يجد وجهها مستجيماً عاد ليقول بلهجة خطابية: "لم يكن بإمكانني تفادي الصدمة". كل ساعة حادثة من هذا النوع" وجاء شرطي مسرعاً وفتح له وقع قدميه ثغرة في السور الآدمي، نفذ منها وهو يصبح في الناس أن يبتعدوا خطوات. خطوات فقط وعيتهم لا تحول عن الرجل ولا تخفي حدة تطلعها وإشفاقها وقال إنسان: "سيبقي هكذا حتى يموت ونحن لا نفعل شيئاً" فأجابه الشرطي بلهجة رادعة "أقل لمسة قد تقتله، وبوليس النجدة والإسعاف في الطريق إليه" واعتراض الحادث جانب الطريق وأضطررت السيارات إلى الإلتفاف حول السور البشري مشاركة الترام في مشاة. فضاق بها حتى تحركت في بطء شديد وتجمعت في صفوف ممتدة ومتداخلة وهي تصرخ وتعوي بلا فائدة، ومن ركابها تطلعت أعين إلى الضحية في اهتمام وأعين تجنبت النظر في جذع. وجاء بوليس النجدة وراء صفارته الحلوذنية فاتسعت الحلقة وغادرت القوة السيارة إلى الرجل الملقي وكان الضابط حاسماً وحازماً، فأصدر أمراً بت分区 المتجمعين، وتحفص الرجل بنظرة شاملة وسأل الشرطي: "ألم تحضر الإسعاف؟" وإن لم تكن ثمة ضرورة إلى السؤال فإنه لم يلق بالاً إلى الجواب، وتسائل مرة أخرى: "هل من شهود؟" فتقدم ماسح أحذية وسائق لوري وصبي كبابجي كان عائداً بصينية فارغة، وأعادوا على مسمع الضابط ما حدث منذ ما كان الرجل المجهول يتكلم في التليفون. وجاءت سيارة الإسعاف وأحاط رجالها بالرجل، وتحفصه رئيسهم بعناية وحذر وهو يجلس القرفصاء، ثم نهض متوجهاً إلى الضابط فبادره هذا قائلاً: "أظن يجب نقله إلى الإسعاف"، فقال الآخر بلهجة ذات أثر لا يختلف عادة عن الأثر الذي يحدث عن جرس سيارته: "بل يجب نقله إلى مستشفى الدمرداش" وأدرك الضابط ما يعنيه ذلك على حين استطرد رجل الإسعاف قائلاً: "أعتقد أن الحالة خطيرة جداً". وعندما أرقد الرجل بحجرة الفحص في مستشفى الدمرداش، كانت طلائع الليل ترتفع كالجبال، ثم التفت إلى مساعدته قائلاً: "إصابة خطيرة في الرئة اليسرى، ثم شهق شهقة خفيفة واستكן، فالتفت المدير نحو مساعدته وهو يقول انتهي. وجاء ضابط النقطة والرجل ما يزال راقداً بكمال ملابسه، عدا فرد الحزاء المفقودة، فقال الضابط وهو يوميء إلى الفقيد: "شهادة الشهود ليست في صالحه"، ثم وهو يقترب من السرير: "أرجو أن تستدل على شخصيته" وشرع في عمله على حين بسط له الشاويش المرافق له ورقة فوق منضدة، ودس الضابط يده برفق في جيب الجاكتة الداخلية فاستخرج حافظة نقود قديمة متوسطة الحجم ومضى يفتحها جيباً جيباً، روشتة للدكتور فوزي سليمان، وألقي نظرة عابرة على أسماء الأدوية، ولكنه لاحظ وجود كتابة على ظهرها وجره بصره عليها بلا إرادة فإذا بها ويستحسن تجنب المنبهات كالشاي والقهوة والشيكولاتة" وابتسم الضابط ابتسامة باطنية، إذ أن تعليمات شبيهة صدرت إليه من طبيبه في نفس الشأن، وانتقل إلى الجيب الداخلي وما لبث أن قال في فتور: "ثلاثة قروش ونصف عملة معدنية" وتوالي التفتيش وتتابع الإملاء، وكان آخر ما عثر عليه صفحة مطوية من كراسه ويسطعها فوجدها رسالة لم تغلف بمظروف بعد، نظر أول ما نظر على الإ مضاء ولكنه لم يزد عن "أخوك عبد الله"، فعاد إلى رأس الصفحة ولكن الرسالة كانت موجهة "إلى أخي العزيز أダメه الله" فاستاء من هذه المعاندة ولم يجد بدعاً من قرائتها. أضطر إلى التوقف رافعاً عينيه إلى تاريخ الرسالة وكان تاريخ اليوم نفسه ٢٠ فبراير، وامتد بصره فوق الوجه الأسطر إلى الوجه الباهت المشتوب بزرقة مخيفة المغلق كسر، ذلك الذي تحقق له أكبر أمل في الحياة وتسائل الطبيب عثرت على شيء؟ "فقد انزاحت عن صدره الأعباء المريرة،

أمينة وبهية وزينب في بيتهن، وكلما ذكرت الماضي بمتاعبه وكده وشقاءه أحمد الله المنان، وهذا هو النصر المبين" ، واسترق النظر مرة أخرى إلى الإنسان الراحل الذي لا يدرى أحد مقره، الذي يتير الدهشة بصمته و انزعاله وارتداده العميق إلى المجهول، "المتاعب والقلق والشقاء والأمل الكبير والنصر المبين، وبعد تفكير طويل، قرّرأيي علي ترك الخدمة فعلا، فهيهات أن تتحسن صحتي طالما بقيت في المدينة، هي الفرق بين المرتب والمعاش، ولذلك قررت أن أطلب إحالتي إلى المعاش وقرباً أعود إلى البلد، إن شاء الله،